رسالة



تأليف:

أحمد بن محمد طاجون

الطبعة الثانية

بالقاهرة عام : ١٤٢٦ من الهجرة
٢٠٠٥ من الميلاد

* * *

مَطْبَعَةُ الْكِيلانيِّ وَمَكْتَبَتُها
٢٨ ش البستان - باب اللوق
ت : ٠٢/٣٩٥٧٧٣٣

٢٢ ش الأديب كامل كيلانى - باب الخلق
ت : ٠٢/٣٩١٨٥٩٨ - ٠٢/٣٩٥١٥٤٣



﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ النساء .

قال رسول الله ﷺ :

« قد تُركتُم على البيضاءِ(١) ليْلُها كنهارِها لا يَزِيغُ عَنْها بَعْدِى إلّا هَالِكٌ » .

« مَن يَعِشْ بَعْدِي فسيَرىٰ اختلافًا كَثيرًا ، فعليكُمْ بِمَا عَرفْتُم من سُنّتي وسُنّةِ الخُلفَاءِ الرّاشِدِينَ المهديِّين بَعْدِى عَضُّوا عَلَيْها بالنّواجِذ .

وإيّاكُم والأمورَ المحدَثَاتِ ، فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالة ، وعليكُمْ بالطّاعة ... » الحديث .

رواه العرباض بن سارية وأخرجه ابن ماجة وغيره .

• • • •

« حَجَبَ اللهُ الجنّةَ عَن صَاحِب البِدْعة »

(أثر)

---

(١) البيضاء : يريد ﷺ الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلاً .

شــكر وتقديــر

(يسرنى أن أتقدم بأجزل الشكر ، وعاطر الثناء إلى الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض « الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات » على العناية بمراجعة هذا الكتاب والإذن بطبعه بموجب الخطاب رقم ٥/٣٧٦ المؤرخ فى ١٤٠٨/٤/١هـ الموجه لفضيلة مدير الرقابة الدينية بفرع وزارة الإعلام بجدة ، وقد جاء فى تقرير الإدارة الموقرة عنه : تبين بعد الدراسة أنها تشتمل على شرح لحديث « بدأ الإسلام غريبا .. » ظهور الإسلام . الفتنة . طوبى للغرباء . أسباب التقاطع والتناحر . من صفات أهل الحق .. الخ وهي بطريقة مختصرة لكنها مفيدة إن شاء الله .

ويسعدنى أن أعبر عن خالص الشكر وصادق التقدير لوزارة الإعلام — إدارة الإعلام الداخلى — جدة — على العناية بهذا الكتاب والإذن بطبعه بمقتضى الرسالة رقم ١٠٧٥/ م ج المؤرخة فى ١٤٠٨/٤/٨ من الهجرة) .

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق) .
* مع القرآن الكريم .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أخرج (كتاب الشكر) للإمام الحافظ أبى بكر عبد الله (ابن أبى الدنيا) من علماء القرن الثالث من الهجرة ، مع زيادات وتعليقات ومقدمة عن المؤلف وعصره .
* يوم الفرقان .
* إلى البرهان يا أولى الألباب .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* كيف نربى ناشئتنا ؟ (كلمة فى التربية) .
* أذكار ودعوات مباركات .
* دار السلام (فى وصف الجنة وأهلها) .
* فى فجر الإسلام « عرض قصصىّ » .

أحمد بن محمد طاحون

رسالة :

طوبى للغرباء

أحبابُ الله

« هم البريئةُ أيديهم ، الطاهرةُ قلوبُهم . الذين يتحابُّون بجلالِ الله ، ويتمسَّكون بِسُنَّة نبيِّه ﷺ .

ويُصلِحُون أنفسَهم حين يَفْشو الفسادُ فى الناس ، ويُصلِحُون ما أفسد الناسُ من السُّنَّة .

لا تَفْتِنُهم الشهواتُ ولا تُضِلُّهم الشُّبُهاتُ .

وَيَنْزَوُونَ عن الفِتَن ويُبادِرُون إلى الخيرات والمبرَّات ، ويَكْلَفُونَ بِحُبِّ ربِّهم ، وَيَغْضَبُون لمحَارِمه إذا استُحلَّت .

صدورُهم نقيَّةٌ ، ونُفوسُهم مُطمئنَّة راضية » .

تقديم بين يَدَيْ هذه الرسالة :

أهلُ الحقِّ ، هم أهلُ الأمانةِ ، والصدقِ ، والوفاءِ بالعهد ، هم الحلماء ، الأبرارُ ، الرحماءُ ، عقولُهم متفتحةٌ على الهدى والخير والرشاد ، بواطنُهم مضيئةٌ بنور التوحيدِ النقيِّ الخالص .

أهلُ الحق هم المتمسكون بالكتاب والسنَّةِ ، هم الحنفاءُ يؤمنون بأن الله واحدٌ لا شريكَ له ، ولا ولدَ ، ولا نِدَّ ، ولا صاحبة ، وأنه سبحانه له كلُّ صفاتِ الكمال وكلُّ نعوتِ الجلالِ والجمال ، تنزّه عن مشابهة المخلوقين ، وتعالى عن الحاجة إلى وسطاءَ أو شفعاءَ بينه وبين عبيده وهو سبحانه المقصود فى الحوائج على الدوام لعظم قدرته وكمالهِ ، يفعل ما يشاء ، وَيَحْكم ما يريد ، لا مُعقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، وإن كل الخلق في حاجة إليه ، وهو سبحانه مُستغنٍ عن كل أحد ، وهو سبحانه المستغاثُ به عند الشدائد والكُرب ، منه وحده تُطلب الحاجات ، وتُرجى الخيرات ، ويُسأل لدفع الشرور والآفات ، هو الأول بلا ابتداء والآخرُ بلا انتهاء ، سبحانه هو الله الواحدُ الأحد ، الفردُ الصمد ، الذي لم يلدْ ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .

إن عقيدةَ أهلِ الحقِّ هى عقيدةُ التوحيد التى جاء بها الوحى وكان

عليها السلفُ الصالحُ من هذه الأمة ، وإن مسالِكهم ومشاربَهم وأعمالهم مستمَدّة من كتاب الله ومن سنّة النبى ﷺ .. لذا فهم غرباءُ حين تكثر البِدَع .. وحيث تكون للباطل صولةٌ .. والعاقبةُ دومًا لأهل الخير والحبِّ والسلام والحق .. طُوبى للغرباء .

وبين يَدَىْ الأخ القارىء هذه الرسالة الصغيرة ، أرجو أن يتدبَّرها وهو يُقلّب الصفحات ، وأسأله الدعاء لأخيه بالعفو والعافية فى الدنيا والآخرة والفوز بجنات النعيم .

والله الموفق للسداد والرشاد

أخـوك
أحمَد بن محُمَّد طاحُون
جـدة - الشرفيـة ش سيف الله المسـلول
عام ١٤٠٨ من الهجـرة ١٩٨٨ من الميـلاد

طُوبىٰ لِلْغُرَباء

والعياذُ باللهِ من فِتْنَةِ الشُّبهات وفتنةِ الشَّهوات

الحمد لله ربِّ العالمين ، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغى لكرم وجهه وعِزِّ جلاله .

وصلى الله على نبى الهدى والرحمة ، ورسول الخيرِ والمحبة والسلام ، وعلى آله وصحبهِ والمؤمنين به وسَلَّم تسليمًا كثيرًا . أما بعد :

فقد خَرَّج مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « بَدَأَ الإسلامُ غَرِيبًا ، وسيعودُ غريبًا كما بدأ ، فَطُوبىٰ لِلْغُرباء » وخرّجه الإمام أحمد وابن ماجة عن ابن مسعود .

وفى الجامع الصغير : « إنَّ الإسلامَ بدأ غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطُوبى لِلْغُرباء » خرّجه مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجة عن ابن مسعود ، وابن ماجة عن أنس ، والطبرانى فى الكبير عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس ، وأشار السيوطى إليه بعلامة الصحيح .

وفى حديث ابن مسعود عند أحمد وابن ماجة زيادة فى آخره ، وهى : « قِيل : يا رسول اللهِ ، وَمَنِ الغُرباء ؟ قال : النُّزَّاع مِن القبائل » .

والنُّزَّاع : جَمْعُ النَّازِع وهو الغريب .

وخرّجه أبو بكر الآجريّ من علماء القرن الرابع من الهجرة[1] ، وعنده قيل : « يا رسولَ اللهِ ، وَمَنْ هُم ؟ قال : الذِين يَصْلُحُون إذا فَسَدَ النَّاسُ » .

وعند غيره : « قال : الذين يَفِرُّونَ بدينِهم من الفِتَن » .

وعند الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص : « فَطُوبىٰ يومئذٍ للغُرباء ، إذا فَسَدَ النَّاس » .

وعند الإمام أحمد والطبراني من حديث ابن عمر : « طُوبى للغُرباء ، قُلنا : وَمَن الغُرباء يا رسولَ اللهِ ؟ قال : قومٌ قليلٌ في نَاسٍ سُوءٍ كثير ، مَن يَعْصِيهم أكثرُ مِمَّن يُطيعهم » .

وجاء عن ابن عمر مرفوعًا وموقوفاً : « قيل : وَمَن الغُرباء ؟ قال : الفرَّارون بدينهم ، يَبْعَثُهم اللهُ مع عِيسىٰ ابنِ مريمَ عليه السلام » .

تفسير وتعليق :

فما المراد بقوله ﷺ : « بدأ الإسلامُ غريبًا » .

قال ابن رجب الحنبلي[2] : يريد به أن الناسَ كانوا قبل مَبْعثه ﷺ على ضلالة عامّة ، كما قال النبى ﷺ فى حديث عِياض بن حمار التميمي الذى خرّجه مسلم وفيه : « إنَّ اللهَ نَظَر إلى أهلِ الأرضِ فمقَتَهم عَرَبَهم وَعَجَمَهُم إلّا بَقَايا من أهلِ الكتاب » .

---

(١) وقيل القرن الثالث من الهجرة .

(٢) الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ولد ببغداد ثم أقام بدمشق وتوفى بها سنة ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة ، وله مؤلفات متعددة وقيمة .

إن ما كان عليه الناسُ فى الجاهلية هو سببُ مقتِ الله وغضبهِ ، فقد كانوا على ضلال كبيرٍ فى المُعتقدات والأخلاق إلَّا من عَصَمَ اللهُ من عباده الذين وحَّدوه ، وأخلصوا له سبحانه مِن بقايا أهلِ الكتاب وكانوا غرباء بين سائرِ الناسِ لِقلَّتهم ، وَمُبَايَنَةِ[1] مشارِبهم ومسالِكهم لِمَا كان شائعًا وله الغلبةُ على الفِكْر والخُلق والمَسْلك من الفساد والشرِّ والإلحاد والشرك .

فلما بُعِث النبيُّ محمدٌ ﷺ ، ودعا إلى الإسلام لم يَستَجِب له فى أولِ الأمرِ إلَّا الواحدُ بعد الواحدِ من كلِّ قبيلة ، وكان المُستجيبُ له يَشعر بين أهلِهِ بحالِ غربةٍ ، فهو خائفٌ منهم ويُؤذَىٰ غايةَ الإيذاء ، وَيُنالُ منه وهو صابرٌ ابتغاءَ وجهِ الله .

وكان المسلمون إذْ ذاك مُستضعفين يُشرَّدون كلَّ مُشرَّد ، وَيَهْربون بدينهم إلى البلاد النائية كهجرتهم من مكةَ إلى الحبشةِ مرَّتين ، فى المرة الأولى كان عدد المهاجرين اثنى عشرَ رجلاً وأربعَ نسوةٍ ، ثم صاروا فى المرة الثانية ثلاثةً وثمانين رجلا وثمانِيَ عشرةَ امرأةً ، ثم هاجر المسلمون بعد ذلك إلى المدينة المنورة .

لقد كان الداخلون فى الإسلام حينئذ وهم أهل الحقِّ غُرباء بين الناس ، كان منهم من يُعَذَّب فى الله ومنهم من يُقتل ، ومنهم من يُحبس !.

---

(١) مُباينة : مُفارقة طباعهم وخصالهم .

ظهور الإسلام :

ثم ظهر الإسلامُ بعد الهجرة إلى المدينة وَعَزَّ ، وقَوِيتْ الشوكةُ ، ودخل الناسُ فى دين اللهِ أفواجًا ، وأكمل اللهُ لهم الدين ، وأتَمَّ عليهم النعمة ، وتُوفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ والأمرُ على ذلك ، وأهلُ الإسلامِ على غايةٍ من الاستقامة فى دينهم ، وهم متعاونون ، متعاضِدون ، متناصرون يُسَرُّ بهم الحبيب ، ولا يَشْمَتُ فيهم العدوُّ ، بل إن أمرَ المسلمين كان يَغيظ العدوَّ ويُؤْلمه لما يَرىٰ ما هم عليه من الخيرِ والسؤدد والتناصر والرفعة .

الفتنة أعاذنا الله منها :

كان هذا الحال فى صدرِ الإسلامِ وفى زمن أبى بكر وعمرَ رضى الله عنهما ، ثم عَمِل الشيطانُ مكايدَه على المسلمين ، وألقىٰ بأْسَهُمْ بينهم ، وفُشِيت[1] فيهم فتنةُ الشبهات والشهوات ، ولم تَزَلْ هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا حتى استحكمتْ مكيدةُ الشيطان وأطاعه خَلْقٌ كثير ، فمنهم مَن دخل فى طاعته فى فتنةِ الشبهات ، ومنهم من دخل فى فتنةِ الشهوات ، ومنهم من جمع بينهما .

إن هذه الفتنَ التى دخلتْ على المسلمين أخبر عنها النبيُّ ﷺ تحذيرًا لأمته ، ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « افترقت اليهودُ على إحدى — أو اثنتين — وسبعين فرقةً ، وتَفَرَّقت النصارىٰ على إحْدىٰ — أو اثنتين — وسبعين فِرقةً ، وتفرَّقت أُمَّتى —

(١) فشا : فَشْواً ، وفُشُوًّا : ظهر وانتشر ، وفُشِي : بالبناء للمجهول .

أى ستفترق — على ثلاثٍ وسبعين فِرقةً — زاد فى رواية : — ثنتان وسبعون فى النار ، وواحدةٌ فى الجنَّة وهى الجماعة » أى مَن كان على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه .

أخرجه أبو داود والترمذى بأسانيد صحيحة .

هذا فى فتنةِ الشُّبهات ، وأمَّا فى فتنة الشهواتِ فقد جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتُمْ إذا فُتِحَت عليكُم خزائنُ فارسَ والرومِ ؟ أىُّ قومٍ أنتم ؟ قال عبد الرحمن بن عوف : نقول كما أمرنا اللهُ ، قالَ : أو غَيْرَ ذلك ، تَتَنافسُون ، ثم تَتَحاسدون ، ثم تَتَدابرون » .

إن رسول الله ﷺ كان يخاف على أمته من فتنة الدنيا ، وحبِّ الشهوات ، والتقاتلِ على الحُطام الفانى ، وأن يتحاسد المسلمون ، ويتباغضوا بسبب تنافسِهم على دنيا زائلة ، ففى صحيح البخارى أيضًا عن عمرو بن عوف المزنى أن النبى ﷺ قال : « واللهِ ما الفقرُ أخشىٰ عليكم ، ولكن أخشىٰ عليكم أن تُبْسطَ عليكم الدُّنيا ، كما بُسِطَت علىٰ مَن كان قبلكم ، فتَنَافسُوها كما تَنَافَسُوها ، فتُهْلِكَكم كما أهلكتهم » .

إن الرسول الحبيب ﷺ كان يخشىٰ على أمته هاتين الفتنتين — فتنةَ الشبهات وفتنةَ الشهوات — وفى الحديث عن أبى بَرزة نضلة بن عبيد أن النبى ﷺ قال : « إنَّما أخشىٰ عليكم الشهواتِ التى فى بُطونكم ، وفُروجكم ، ومُضِلَّات الفتن » (وفى رواية ومُضلَّات الهَوىٰ) .

ولقد كانت هاتان الفتنتان سببًا فى التقاطع والتباغض بعد أن كانت الأمة يدًا واحدةً تعيشُ فى تحابٍّ وتواصُلٍ ، وللمتأمل فى ذلك عبر وعظات .

والله هو الهادى إلى سواء السبيل .



الذين يُحْيُونَ السُّنَّة وَيَثْبُتون عَلى الحقِّ

معنى بعض الألفاظ :

طوبىٰ : فُعْلىٰ من الطِّيب ، وإنما جاءت الواو فى طوبى لضمة الطاء ، وفى معنى طوبى : قال ابن عباس : فَرَحٌ وَقُرَّةُ عَيْن . وقال عكرمة : نُعْمىٰ لهم . وقال الضحاك : غِبْطَة لهم ، وقال غيرهم : حُسْنىٰ لهم ، وخيرٌ لهم وكرامة ، وقيل طُوبى أى الجنَّة ، وقيل : شَجرةٌ فى الجنة ... وكلُّ هذه الأقوال مُحتملة .

وفى معنى « بدأ الإسلام غريبًا » قال القاضى عِياض نقْلًا عن مالك : معنى (بدأ غريبًا) أى بدأ الإسلام غريبًا فى المدينة وسيعود إليها .

وظاهرُ الحديث العموم ، وأن الإسلامَ بدأ فى آحادٍ من الناس ، وقِلَّةٍ ، ثم انتشر وظَهر ، ثم سيلحق أهْلَهُ النقصُ والاختلافُ حتى لا يبقىٰ إلا فى آحادٍ وقلةٍ أيضًا كما بدأ .

أسباب التقاطع والتناحر :

وقد شرح الحافظُ ابنُ رجبٍ الحنبلىّ هذا الحديثَ فى رسالة قيِّمة سمَّاها (كَشْف الكُربة فى وصْف أهلِ الغُربة) وتناول فيها فتنةَ الشبهات ، وفتنةَ الشهوات ودخولَ أكثرِ الناس فيهما أو فى إحداهما مِمّا أدَّىٰ إلى التقاطُع بين المسلمين ، وفُشُوّ التباغُضِ بعد أن كانوا إخوانًا

متحابِّين مُتواصلين . وقال : (فإن فتنةَ الشهواتِ عَمَّت غالبَ الخلْق ، فَفُتِنوا بالدنيا وزهرتِها وصارت غايةَ قَصْدهم ، لها يَطْلبون ، وبها يَرْضَوْن ، ولها يَغضبون ، ولها يُوالون ، وعليها يُعادون) .

أى إنَّ من شأن المسلم أن يُوالِيَ وَيُحِبَّ ويُنَاصِرَ لله عزَّ وجل ويُعادِى ، ويَكْرَه لله عز وجل ، ولكنَّ الفتنةَ بالدنيا وزهْرتها جعلت غالبَ الناسِ يُوالون لأجل الدنيا ، وإذا مُنعوا كَرِهوا لأجلها ، لا للحقِّ ، ولا لِنُصرة دينِ الله عز وجل .

وغلبةُ الشَّهواتِ إنما تتأتَّى من الغفلة ، يقول حكيم : (لا نوْمَ أثقلُ من الغفلة ، ولا رِقَّ أَمْلكُ من الشَّهوة ، ولولا ثِقَلُ الغفْلة لما ظَفِرت بك الشهوةُ) .

وقال آخر (الشَّهواتُ زِمَامُ الشيطان ، فَمَن أخذَ بزِمَامه كان عَبْدَه) .

وإن الشيطان عدوُّ الإنسان لا يسوقه إلا إلى المهالك فبإغوائه تُقطع الأرحامُ ، ويُعادِى المتحابُّون بعضَهم بعضًا ، فتُسفك الدماء ، وتُرتكَبُ معاصى الله .

وإن واجب أهلِ الإيمان أن تكون قلوبُهم مساكنَ لذكْر الله عز وجل ، وَجِلةً من غضبِهِ سبحانه ، شديدةَ الشوقِ إلى لقاء اللهِ عز وجل مع عِظَم الرجاءِ فى رحمتِهِ وجودهِ وكرمه ، وأن تصحَّ نظرتُهم إلى الدنيا ليجعلوها مطيةً للآخرة ، فهى تخدمُ مَن خدم ربَّه ، وهى تستخدمُ من خدمها .

فتنة الشُّبهات أشدّ :

وكما يُمزِّق حبُّ الدنيا حبالَ المودَّة بين المتحابِّين ، ويُؤدى التنافسُ عليها إلى البغضاء والتقاطع والتدابر ، فإن فتنة الشُّبهاتِ تؤدى إلى ما هو أشدُّ وأعظم ، فإنه بسبب الشُّبهاتِ والأهواءِ المُضِلَّة تَفَرَّق أهل القِبْلة ، وصاروا شِيَعًا ، وكَفَّر بعضُهم بعضًا ، وأصبحوا أعداءً وفرقًا وأحزابًا بعد أن كان المسلمون إخوانًا ، قلوبُهم على قلب رجلٍ واحد ، فلم ينجُ من هذه الفرق كلِّها إلا الفرقةُ الواحدةُ الناجيةُ ، وهم المذكورون فى قوله ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحقّ ، لا يضرُّهم مَن خذَلَهُم ، ولا مَن خالَفَهُم حتى يأتِيَ أَمْرُ اللهِ وهم علىٰ ذلٰك » .

أخرجه الترمذى وأبو داود ومسلم .

من صفات أهل الحقِّ :

وهذه الطائفةُ التي تتمسكُ بدين ربِّها كما جاء فى الكتاب وسُنَّةِ النبى الهادى ﷺ ، ولا يَحيدون عمَّا كان عليهِ أصحابُ رسولِ الله ﷺ ، ويجعلون هواهم تبعًا لما كان عليه النبىُّ ﷺ ، وَيَدْحَضُون الباطل ، ويردُّون البِدَع ، وَيثبتُون على ما كان عليه السلفُ الصالح ، هذه الطائفةُ هم الغرباءُ الذين جاء ذكرهم فى الحديث الشريف « بدأ الإسلامُ غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ فَطُوبَىٰ للغرباء » ... هؤلاء هم الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس ، وهم الذين يُصْلِحُون ما أفسد الناسُ من السنَّة ، وهم الذين يَفِرُّون بدينهم من الفِتَن ، ولا يُجارون أهلَ الأهواء .

وقد ورد أن الرسول ﷺ سُئل عن الغرباء ، فقال : « الذين يُحْيُون ما أماتَ الناسُ من سُنَّتي » .

وقد شبَّه أهلُ الحق ، الذين يَعضُّون على سنّة نبيهم بالنواجذ ، وتضيء بصائرَهُم كلمةُ التوحيد النقيِّ الخالص شُبِّهوا بالغرباء ، إذ سيكونون قلة في زمان تعم فيه الفتن ، ويُبتلىٰ الناس بالأهواء ، والنزعات الحادة ، كما كان عليه الحال فى أول الإسلام ، إذ كان أهلُ التوحيد والإخلاص قليلًا عددُهم فى وسَط أمواج الفساد والشر والشرك والإلحاد ، قال الأوزاعى من علماء القرن الثانى فى قوله ﷺ : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ » أما إنه لا يذهبُ الإسلامُ ولكن يذهبُ أهلُ السنّة حتى ما يبقى فى البلد منهم إلا رجل واحد .

وقال الحسن البصرى[1] : (يا أهل السنّة تَرَفَّقُوا يرحمكم اللهُ ، فإنكم من أقلّ الناس) .

وفى وصف السنّة بالغربة ، ووصف أهلها بالقلة ، قال يونس بن عبيد من علماء القرن الثانى : (ليس شيءٌ أغربَ من السنّة ، وأغربُ منها مَنْ يعرفها) .

وقال سفيان الثورى من علماء القرن الثانى : (استوصُوا بأهل السنّةِ خيرًا فإنهم غرباء) .

ما المرادُ بالسُّنَّة ؟

ومرادُ هؤلاء الأئمة بالسنَّة طريقةُ النبى ﷺ التى كان عليها هو وأصحابُه السالمةُ من الشُّبهات والشهوات .

(١) من فقهاء الشافعية ، له تصانيف عدة ، ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفى في السادسة والثمانين عام ٤٠٥ من الهجرة .

ولهذا كان الفضيل بن عياض من زهاد القرن الثانى يقول فى أهل السنّة : (أهلُ السنَّة مَنْ عَرَف ما يدخلُ فى بطْنه من حلال) ذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصالِ السنّة التى كان عليها النبىُّ ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم .

طُوبىٰ لِمَنْ سَلِمَ قلبُه من الشُّبهات والشَّهوات :

إن السنَّة الكاملةَ كما قال الحسنُ وسفيانُ ويونس بن عبيد وغيرهم هى الطريقةُ السالمةُ من الشبهات ، والشهوات ، لهذا ـــ كما يقول ابن رجب الحنبلى ـــ لهذا وُصِفَ أهلُ السنَّة بالغُربة فى آخر الزمان لِقلَّتهم وغُربتهم فيه ، ولهذا ورد فى بعض الروايات فى وصفهم : (قومٌ صالحون قليلٌ ، فى قومِ سوءٍ كثير ، مَن يعصيهم أكثرُ مِمَّن يُطيعهم) وفى هذا إشارة إلى قلّة عددهم ، وقلّة المستجيبين لهم ، والقابلين منهم ، وكثرة المخالفين لهم ، والعاصين لهم .

ولهذا مُدح المتمسكون بسنَّة نبيهم ﷺ عند فساد الزمان وكثرة الفتن ، وشيوع الأهواء وتناقضها ، وفى الحديث الذى رواه أنس ، وأخرجه الترمذى : « يأتى على الناسِ زمانٌ الصابرُ فيهم على دينهِ كالقابضِ على الجَمْر » .

وعند مسلم والترمذى عن معقل بن يسار أن النبى ﷺ قال : (العبادةُ فى الهَرج ـــ أى كثرة الفتن ـــ كهجْرة إلىَّ) .

عليكم أنفسَكُم :

وعند أبى داود والترمذى بسند حسن ، قال أبو أمية الشعبانى ، سألت أبا ثعلبة عن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[1] فقال : أَمَا واللهِ ، لقد سألتُ عنها خَبيرًا ، سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ ، فقال : « بل ائْتَمِروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا ، وهوىً مُتَّبعًا ، ودنيا مُؤْثَرَةً ، وإعجابَ كلِّ ذى رأْيٍ برأيه ، فعليك بخاصَّة نفسك ، وَدَعِ العوامَّ ، فإن مِن ورائكم أيامًا الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبْضِ على الجمر ، للعامل فيهن مثْلُ أجرِ خمسين رجلًا يعملون مِثْلَ عملكم ، قيل : يا رسولَ الله ، أجرُ خمسين منَّا أو منهم ؟ قال : بل أجرُ خمسين منكم » .

نعم ، إن المتمسكَ بدينهِ فى زمانِ الفتَنِ والشُّبهاتِ والأهواءِ كالقابضِ على الجمرِ ؛ لأنَّ أهل الخيرِ حينئذ قليلٌ ، ولا يَجدون على الخيرِ أعوانا .

فطوبَىٰ للغُرباء أهلِ التوحيدِ ، الثابتين على الحقِّ الصابرين لله .

---

(١) المائدة : ١٠٥

الذين يُصلِحُون أنفسَهم
ويُصْلِحُون ما أفسَدَ الناسُ من أمُورِ دينِهم

الغرباء قسمان :

قَسَّم شيخُ الإسلامِ ابنُ رجبٍ الحنبليّ الغرباءَ إلى قسمين :

أحدُهما : مَن يُصلح نفسَهُ عند فساد الناس .

والثانى : مَن يُصلح ما أفسدَ الناسُ من السنَّة ، وهو أعلىٰ القسمين ، وهو أفضلُهما .

وقد جاءت الآثارُ بغربة أهلِ السنَّة الصالحين بين أهل زمانِهم وذلك عندما تكثر الفرق ، وتظهرُ البِدع ، ويصير العالِمُ بالسنَّة الفقيهُ فى الدين عند فساد الزمان مقهورًا لا يجد أعوانًا ولا أنصارًا .

يقول عُبادةُ بنُ الصامتِ لرجلٍ من أصحابه كما جاء فى مسندِ الإمام أحمد :

(يُوشك إن طالت بك الحياةُ أن ترىٰ الرجلَ قد قرأ القرآن علىٰ لسانِ محمد ﷺ فأعاده وأبْداه ، وأحلَّ حلاله ، وَحرَّم حرامَه ، ونَزَل عند مَنازله ، لا يجوزُ فيكم إلا كما يجوزُ الحِمَارُ الميِّت) أى : تكون منزلةُ العالِمِ العاملِ بالسنّة ضائعةً بين أهل زمانه ، ومعنى : لا يجوزُ فيكم أى لا يسير .

وإنما يقع ذلك آخرَ الزمان لغربة المؤمنِ الصالح بين أهل الشبهات

والشهوات ، إذ كلُّهم يصدُّ عنه ويُؤذيه لمخالفةِ طريقتِهِ لطريقتهم ، ومقصودِه لمقصودهم ، ومباينتهِ لما هم عليه .

غربة المؤمن الصالح :

وفى حديث خرَّجه الطبرانى — بإسنادٍ فيه ضَعْف — عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى ذِكر أشراط الساعة « وإنَّ من أشراطِها أن يكونَ المؤمنُ فى القبيلة أَذَلَّ مِن النَّقَدِ » والنقَدُ : هو الغَنم الصغار والواحدةُ نَقَدَة .

يقول الإمام الشاطبى[1] بعد أن علل للغربة وبيَّن أسبابها قال : (ثم استمر تزيُّد الإسلام — أى زيادته وقوَّتُه وانتشاره — واستقام طريقُه على مدَّة حياةِ النبى ﷺ ومِن بعد موته ، وأكثرِ قرنِ الصحابة رضى الله عنهم إلى أن نَبَغَتْ فيهم نوابغُ الخروج عن السنَّة — أى ظهرت فيهم ظواهرُ البدعة — وأَصغَوْا إلى البِدع المضلة ...) .

الفِرَقُ والفِرْقَةُ النَّاجِيةُ :

ثم قال الشاطبى : ثم لم تزل الفرق تكثر ، حسبما وعَد به الصادق ﷺ فى قوله : « افترقت اليهودُ على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفترقُ أمتى على ثلاثٍ وسبعين فرقة ... » أخرجه الترمذى وأبو داود .

وفى الحديث الآخر : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم ، شِبْرًا بشبر ،

---

(١) هو الإمام الحافظ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمىّ الغرناطىّ المشهور بالشاطبىّ توفى سنة تسعين وسبعمائة من الهجرة .

وذراعا بذراع ، حتى لو دخلُوا جُحْرَ ضبٌّ لا تبعتُموهم ، قلنا : يا رسولَ الله ، اليهودُ والنصارى ؟ قال : فَمَن ؟ » أخرجه البخارى ومسلم ، وهذا الحديث أعمُّ من الأول ، فإن الأول ـــ عند كثير من أهل العلم ـــ خاصٌّ بأهل الأهواء ، وهذا الثانى عامٌّ فى المخالفات ، ويدل على ذلك من الحديث قوله : « حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لاتبعتموهم » .

إن كل صاحب بدعة ومخالفةٍ من شأنه أن يدعُوَ غيره إليها وإنَّ تَعَدُّدَ الأهواءِ والنِّحَلِ والفِرَقِ يُؤدِّى إلى التشاحنِ والعداوة .

ثم قال الشاطبىُّ فى وصف زمان غُربة الإسلام وأهله :

« فإن الغربةَ لا تكونُ إلّا مع فَقْد الأهلِ أو قِلَّتِهم ، وذلك حين يصيرُ المعروفُ مُنكرًا ، والمُنكرُ مَعْروفًا ، وتصيرُ السنَّةُ بِدعة ، والبدعةُ سُنَّة ، فيُقام على أهل السنة بالتثريب(١) والتعنيف ، كما كان أوَّلًا يُقام على أهلِ البِدْعة(٢) ؛ طمعًا من المبتدع أن تجتمعَ كلمةُ الضلالِ(٣) ، ويأبَى اللهُ أن تَجتمعَ حتَّى تقومَ الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلُّها ـــ على كثرتها ـــ على مخالفة السنَّة عادةً وسمعا ، بل لابد أن تثبت جماعةُ أهلِ السنَّة حتى يأتِيَ أمرُ الله » .

ثم بين الشاطبىُّ أن أهلَ السُّنَّةِ يَلْقَوْن من أهل البدع العداوةَ ، ولا يزالون فى جهادٍ ونزاعٍ وَمُدافعةٍ وقِراعٍ مع الفرق الضالَّةِ آناءَ الليلِ

(١) التثريب : المقصود اللَّوْم .
(٢) أى عند قوة الإسلام وأهله كان التثريب والتقريع يقع على أهل البدعة .
(٣) أى فى زمن غربة أهل السنة يطمع أهل البدع فى اجتماع كلمة أهل الضلال وظهورهم على أهل الحق ، ويأبى الله إلا أن يُتم نوره وسيظل أنصار السنة والحق إلى أن تقوم الساعة .

وأطراف النهار ، وبذلك يُثاب أهلُ السنَّةِ الثوابَ العظيم ، ويُضاعِف اللهُ لهم الأجرَ الجزيل .

وقد جاء من حديث أبى هريرةَ رضى الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال : « المتمسكُ بسنَّتى عندَ فسادِ أُمَّتِى لهُ أجرُ مائةِ شَهيد » .

الإسلام آخر الزمان والرجوعُ إلى مكةَ والمدينةِ :

ومن تعليق الشيخ محمد داود يبهى على قول النبى ﷺ[1] : « إن الإسلامَ بَدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ ، وهو يَأْرِزُ بين المسجِدين كما تأْرز الحيةُ فى جُحرها » رواه ابن عمر وأخرجه مسلم .

وقوله ﷺ : « إن الإيمانَ لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحيةُ إلى جُحرها » رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم ومن معانى يأرز : الرجوعُ والانقباضُ والتجمُّع ، يقال : أرزت الحيةُ أى لاذَتْ بجُحرها ورجعت إليه وثبتتْ فيه .

تفسيرٌ للغربة ولأُروزِ الإسلام بينَ المسجدين :

قال الشيخ يبهى : إن الإسلام بدأ غريبًا لدى العقول غير مألوف فى البيئة التى ظهر فيها لطرافته وجِدَّتِهِ ما فيه من شرائعَ وأحكام ، ولا نزاعَ فى أن الإسلام فى بَدْئه كان غريبًا على العقول ، ولهذا عاداه الكثيرُ من العرب فى بدء أمره ، ولما تأمَّلوه مُنصفين ، وخالطت بشاشَتُهُ

(١) فى كتابه شرح المختار من هدى الرسول ﷺ (محاضرات فى كلية اللغة العربية — الصف الثانى — عام ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م) .

قلوبَهم ، وتركوا التعصب لملّةِ آبائهم عَقَلوه ، وكان لهم فيه الحكمةُ ، والرأىُ الرائع ، والعصمةُ من ظلمات الجهل ، وانتشر فى كل البقاع ، وخفقت رايتُه فى مشارق الأرض ومغاربها .

وكان ابتداء ظهور الإسلام قويًّا رائعًا فى المدينة المنورة ، وهى ليست البلدَ الأولَ الذى بدأ نزول الوحى فيه ، وكما أعز الله الإسلام بالأنصار أهلِ المدينة ، فقد حمل رايتَه المهاجرون الأولون الذين فارقوا أوطانهم فى سبيل إعلائه ، وتحملوا فى سبيله ما تحملوا ، ورفعوا دعائمه ، وهم نُزَّاعٌ من قبائلَ شتَّى .

هذا فى أول ظهور الإسلام فانتشاره وظهور أهله ! أمّا الدور الذى أشار إليه الحديثُ الشريف : « وسيعود غريبًا كما بدأ » فالمقصود غَرابتُهُ فى العقول ، وكونُه غيرَ مألوفٍ لديها ، فإن الإنسان إذا تأمل حالَ القائمين بالدين فى ذلك الدور الأخير من تاريخ الإسلام وجدَهم غرباءَ عن بقية الناس ؛ لأنهم طرحوا الدنيا حين أقبل غيرهم عليها ، وأقاموا العدلَ حين ظَلم غيرُهم ، وصبروا حين جَزِع مَن عداهم ، ولذلك ضوعف لهؤلاء الأجر : « فطُوبى للغرباء » جُعلت لهم الحُسنىٰ أو المغفرةُ أو الخيرُ أو الجنةُ أو شجرةٌ فى الجنة وهو معنى (طُوبىٰ) .

أمّا مآلُ الإسلام فى هذا الدورِ فقد أشار إليه النبىُّ ﷺ بقوله : « وهو يأرِز بين المسجدين » أى إن الإسلامَ فى هذا الدورِ سيأخذُ فى التجمُّع — أى تجمُّع أهلِ الحقِّ المتمسكين بدينهم وسنَّةِ نبيهم ﷺ — ويتضامُّ شيئًا فشيئًا حتى يأوِىَ إلى مهْده الأول ، ويرجعَ إلى دَوْحتهِ التى

منَها بَزغ وظهر وعمَّ نورُه وهى مكةُ والمدينةُ وما بينهما ، فالمراد بالمسجدين مسجدِ مكةَ ومسجدِ النبى ﷺ فى المدينة .

والمرادُ أن الإسلامَ فى آخر الزمانِ بين يَدَىْ الساعةِ يذهبُ من بقاع الأرض لشيوع الفِتنِ وانتشارِ الأهواءِ والشبهاتِ ولذهاب الصالحين ، فإذا ذهبتَ تبحثُ عنه وجدتَهُ تجمَّع فى مكةَ والمدينةِ وما بينهما لبُعد هذه الأماكنِ عن الفتن ، ولوجود مشاعرِ الحجِّ فى مكةَ ومسجدِ الرسولِ ﷺ فى المدينة ، وَكُلُّ مسلم يَحِنُّ إلى هذه المواطن ، وَيَوَدُّ لو استطاع أن يُقيمَ فيها ناجيًا بدينه وعرضه من الفتن .

جنَّبنا اللهُ الزلَلَ ، ووقانا شرَّ الفِتن ، وجعل خيرَ أعمالنا خواتيمَها ، وخيرَ أيامنا يومَ لقائه ، إنه سميعٌ مجيب .

وحسبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ، هو رجاؤُنا ، وبه نستعينُ ، وإيَّاه نسأل أن يهدِيَنا إلى الطريق الذى يُحِبُّه ويَرضاه .

كلمة في ختام هذه الرسالة :

هذا فى معنى غربةِ الإسلام وأهلِهِ المتمسكين بما جاء به الوحْىُ مقتدين بنبيهم محمد ﷺ ، وفيما أخبر به النبىُّ ﷺ من التفرُّق والتمزُّق وكثرةِ الفرقِ بسببِ الشبهات ، والجرى وراء الشهوات ، وإن الواقعَ فى حياة أمة الإسلامِ يُوضح بجَلاءٍ هذه المعجزةَ النبويَّةَ ، إذ لا ينطقُ ﷺ عن الهوى أو الرأى الشخصىِّ فى مثل هذه الأمورِ الغيبيةِ ، وإنما هو الوحْىُ الذى كان ينزل به جبريلُ عليه السلام على خاتم النبيين عليه الصلاةُ والسلام يُخبره بما سيكون ، وبما يريدُ اللهُ عز وجل أن يُعْلِمَه نبيَّه من عالم الغيب .

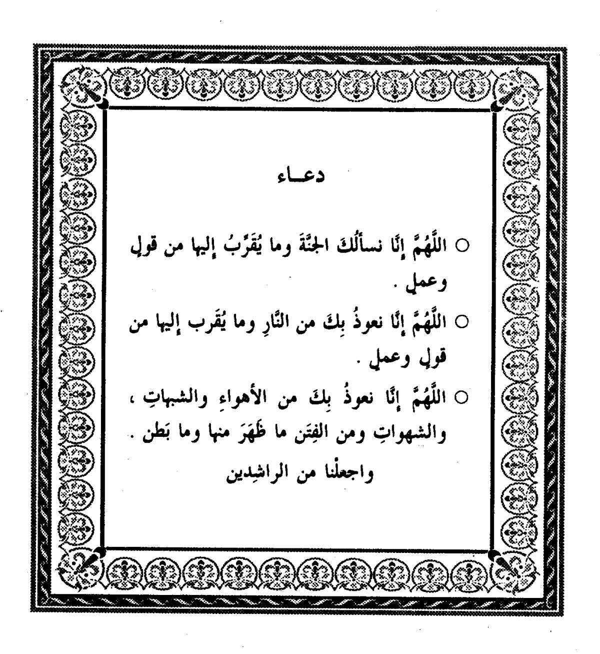
* * *

إنه لا نجاةَ لأمةِ الإسلام مِمَّا هى فيه إلا بالرجوع إلى الكتاب والسنَّة ، ونَبْذِ الأهواء ، وتَرْكِ البِدع التى لا أصلَ لها فيما كان عليه النبىُّ ﷺ وأصحابُه رضوانُ الله عليهم ، وقد تمسكوا بما جاء به القرانُ الكريمُ وبسنَّةِ نَبيِّهم الأمين ، وما ضلَّت الفِرقُ التى ابْتَدعت إلَّا بالخروج عن هذين الأصلين ، والانحرافِ عن الصراط المستقيم الذى كان عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابه .

* * *

فطوبىٰ للمتمسكين بسنّةِ نبيهم ، المقتدين به ، الذين رَضُوا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًا ورسولًا ، وبالقرآن إمامًا ، وعضُّوا على سنَّة نبيهم بالنواجذ ولو عاشوا غرباء ، فحسبُهم أنهم شرفاء ، وأنهم أولياءُ الله ، وأحبابُ رسول الله ﷺ ، على نور الوحي يسيرون ، وبعقيدة التوحيد النقيِّ الخالصِ من كل شائبة من شوائب الشرك يتمسكون حتى يلْقَوا الله على اليقين ، ويبعثهم الله سبحانه على اليقين ، ويشملهم برحمته ، وبفضله وإحسانه وجوده وكرمه .





دعــاء

○ اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ الجنَّةَ وما يُقَرِّبُ إليها من قولٍ وعملٍ .

○ اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ من النَّارِ وما يُقَرب إليها من قولٍ وعملٍ .

○ اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بِكَ من الأهواءِ والشبهاتِ ، والشهواتِ ومن الفِتَن ما ظَهَرَ منها وما بَطن .

واجعلْنا من الراشِدين

في هــذا الكتاب

الصفحة

للمؤلف:

* مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق) .
* رياض الصالحين ومنار السالكين.
* البيان (٦ رسائل)
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خمسة أجزاء) .
* البستان رفيق العائلة (الجزء الثانى من كتاب «البيان» ١٤ رسالة) .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* الفائق فى الأخلاق والتربية (تنقيح وتلخيص كتاب: فضل الله الصمد فى توضيح «الأدب المفرد» للإمام البخارى) .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب: «تجريد التوحيد المفيد» للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* أخرج كتاب «الشكر» لابن أبى الدنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف.
* كتاب التوكل للإمام ابن أبى الدنيا (مع زيادات وتعليقات) .
* الزهور النديّة فى «خصائص وأخلاق خير البرية»: «تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللدنّيّة بالمنح المحمدية» للإمام القسطلانى .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* أذكار ودعوات مباركات .
* فجر الإسلام «عرض قصصى».
* مع القرآن الكريم .
* يوم الفرقان .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء.
* فى أنوار سورة الفرقان .
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم.
* حضارة الإسلام وأوربا .
* دليل الحج والعمرة والزيارة بالسؤال والجواب .
* مع بحر النور الهادى البشير ﷺ .
* الدعاء المبرور لحجاج بيت الله المعمور .

تحت الطبع:

* فلسطين والقدس قرّة عين الآباء وأمانة الأبناء .
* تحديد نسبة الربح سلفًا متى يجوز ؟
* الإمام محمد بن عبد الوهاب .

« تمت الطبعة الأولى في مطابع سحر بالمملكة العربية السعودية
في مدينة جدة عام ١٤٠٨ من الهجرة (عام ١٩٨٨ من الميلاد)
بتصريح من وزارة الإعلام رقم ١٠٧٥/م/ج بتاريخ ١٤٠٨/٤/٨هـ
والحمد لله رب العالمين »

رقم الإيداع: ٥٩٣٥/ ٢٠٠٥